٦- خطــبة الوداع

- مقدمة
- خطبة الوداع
- حرمة الدماء والعدوان
- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]
- الخطبة الثانية

في هذه الأيام المباركة تتوافد الوفود من كل صوب وحدب وتتجه أنظار وأفئدة المسلمين من كل بقعة على الأرض إلى مكة المكرمة . . يتمنى كل مسلم أن لو كان هناك الآن . . واللهَ نسأل أن يكتب لنا حجًّا مبرورًا ووقوفًا بعرفة، من حج منا، ومن لم يحج، فلا ندرى ما يعرض لنا غدًا . .

- فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«**تعجلوا إلى الحج، فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له**». أحمد وأبو داود وابن ماجه

فلا تؤخر، ولا تسوف، ولا تتوانَ طالما ملكت الاستطاعة، فأنت لا تدرى ما تحمل لك الأيام، من فقر أو مرض أو عجز أو أي عارض . .

- ولا تخشَ الفقر أو الحاجة أو نفقة الأولاد، فرسول الله ﷺ يطمئنك فيقول ﷺ:

«**تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد**». النسائي والترمذي وأحمد.

ولاحظ أن النبي ﷺ قدم نفى الفقر على الذنوب لأن الناس تخاف الفقر أكثر مما تخاف الذنوب.

- والحج أيها الأحباب شأنه شأن كل العبادات هو درس أخلاقي يرتقى بالنفوس . . .

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

وانظر بماذا بدأ المولى عز وجل سورة الحج في القرآن؟

هل قال يا أيها الناس حجوا؟ يا أيها الناس طوفوا؟ يا أيها الناس ارموا الجمرات؟.

أبدًا إنما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النِّساء: ١].

هذا ما يريده المولى عز وجل .. التقوى والخلق ..

لذلك لما ذكر ذبح الهدى في الحج قال سبحانه وتعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحَجّ: ٣٧] فما الذي يناله وما الذي يريده؟.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحَجّ: ٣٧].

خطبة الوداع:

والآن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، وما أدراك ما هناك ..

الزمان: السنة العاشرة من الهجرة ..

المكان: مكة المكرمة ..

الأحداث: محمد بن عبد الله ﷺ يحج ملبيا لبيك اللهم لبيك .. يرفع قدما ويضع أخرى وهو يشعر بأنها أخر الخطوات التي سيخطوها في البلد الحرام .. ويقترب النبي ﷺ من الحجر الأسود ليقبله للمرة الأخيرة فلا يتمالك نفسه فإذا بالقلب يخشع والعين تدمع وتسيل الدموع.

- ثم يتقدم النبي ﷺ إلى جبل عرفات يدعو ربه إلى أن قاربت الشمس على المغيب .. وتشرئب الأعناق لسماع رسول الله ﷺ .. مائة ألف من المسلمين يصطفون لسماع خطبة الوداع .. وداع الحبيب ..

نعم فرسول الله ﷺ يودع الدنيا بهذا البيان النبوى ...

كـأنني بـرسول الله مـرتديـا ... ملابس الطهر بين الناس كالقمر
نور وعـن جانبيه من صحابته ... فيالق وألـوف النـاس بـالأثر
يشدو بخطبتـه العصماء زاكية ... كالشهد كالسلسبيل العذب كالدرر
يمضى ينادى خذوا عنى مناسككم ... لـعـل هـذا ختام العهد والعمر

- وتذيع الإذاعات الرحمانية النبوية على موجاتها السماوية والفضائية

والأرضية بيان الحبيب المصطفى إلى البشرية كلها . . يصمت الجميع ليتكلم النبي ﷺ . .

«أيها الناس . . اسمعوا مني فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . . أيها الناس . . إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . . ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد . .

أيها الناس . . إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي بما سوى ذلك، مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم . .

أيها الناس . . إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حقا . . فاستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا . . وإنكم أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنَّ خيرًا . . . ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس . . إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث.

أيها الناس . . إن ربكم لواحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب . . و ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى . . ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد . . .

أيها الناس . . ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠] ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، فلا ترجعوا بعدى كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض، فاني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا: كتاب الله وسنتي . . ألا هل بلغت؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم فاشهد، وليبلغ الشاهدُ الغائبَ». مسلم وابن حبان وصححه الألباني.

حرمة الدماء والعدوان:

- تعالوا أيها الأخوة الأحباب، نقتطف ثمرة يانعة من بستان تلك الخطبة السامقة الشاهقة. . تعالوا نتدبر قول النبي ﷺ:

«**أيها الناس . . اسمعوا منى فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . .**

أيها الناس . . إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . . .».

فللدماء حرمتها عند المولى عز وجل والتي لا تدانيها حرمة . . لذلك فإن أول ما يقضى الله فيه يوم القيامة بين العباد في الدماء . . وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة في الدماء**».

- فلتزل الدنيا بزخرفها وبحارها وجبالها وسمائها وأرضها وقمرها وشمسها وليلها ونهارها، ولا يسفك دم امرئ مسلم . .

يقول ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله، تبارك وتعالى، من دم امرئ مسلم يسفك بغير حق**» مسند البزار.

- وعن أبى موسى الأشعري بإسناد صحيح في حديث رواه ابن حبان:

«إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول: من أضل اليوم مسلمًا ألبسته التاج . . . فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى عق والديه، فيقول إبليس: يوشك أن يبرهما . .

ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول الشيطان: يوشك أن يتزوج . .

ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول الشيطان: أنت أنت . .

ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قَتَلَ، فيقول الشيطان: أنت أنت ويلبسه التاج».

لماذا هذا؟.

لأن من عق والديه يمكن أن يعود ويبرهما . . ومن طلق امرأته يمكن أن يراجعها . . ومن أشرك يمكن أن يعود إلى الإيمان . . أما من قتل نفسًا فكيف يحييها؟.

لذلك يقول النبي ﷺ:

«كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا من مات مشركًا، أو قتل مؤمنًا متعمدًا».

أحمد وأبو داود وصححه الألباني.

- بل إن النبي ﷺ ينهى عن مجرد الاقتراب من أسباب إراقة الدماء . .

فيقول ﷺ: «لا يُشِرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار» متفق عليه.

- ويقول ﷺ:

«من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعها، وإن كان أخاه لأبيه وأمه». مسلم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]:

- نعود إلى أول نهى لرسول الله ﷺ في خطبة الوداع . .

«أيها الناس . . إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . .

أيها الناس . . ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ . . . لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض . .».

فإذا كان النبي ﷺ ينهانا عن إصابة دماء أخ مسلم وينهانا عن التشاحن والتباغض . . فبماذا يأمرنا ﷺ؟

- يأمرنا ﷺ بما أمرنا به رب العزة فقال:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

- يأمرنا ﷺ فيقول:

«تُعرَض الأعمال على الله تعالى كل يوم اثنين وخميس، فيغفر لكل امرئ لا يشرك بالله شيئا، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول تعالى: أنظروا هذين حتى يصطلحا . . أنظروا هذين حتى يصطلحا . . أنظروا هذين حتى يصطلحا». مسلم.

- يأمرنا ﷺ فيقول:

«**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار**». أبو داود وصححه الألبانى.

- وهكذا يمضى رسول الله ﷺ في خطبة الوداع، يوصى بأخوة الإيمان، وأخوة الإسلام، والنهى عن العدوان والنهى عن سفك الدماء . .

«**إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم حتى تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . .**

لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض . .».

وبعد أن ينتهى النبي ﷺ من خطبته العظيمة ينادى في الناس:

«**أيها الناس، إنكم ستُسألون عنى، فماذا أنتم قائلون؟**».

فارتفعت الأصوات حول النبي ﷺ تصرخ وتقول:

نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . .

فرفع النبي ﷺ نظره إلى السماء، وأشار بسبابته قائلا:

«**اللهم فاشهد. .اللهم فاشهد . . اللهم فاشهد**». صحيح الجامع وصححه الألبانى.

- وهنا ينقطع الإرسال لينزل الوحي على جبل عرفات بقول المولى عز وجل:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المَائدة: ٣].

بشريات فرح الناس بها . . . إلا أن بكاء أبى بكر يثير انتباه الناس إلى أن نزول هذه الآيات معناه أن أجل الحبيب المصطفى قد حل . .

وهنا تنفطر القلوب وتسيل العبرات وتجف الحلوق . . فرسول الله ﷺ يودع الدنيا بعد حجة الوداع.

سيدي يا رسول الله . . .

نشهد أنك أديت الأمانة وبلغت الرسالة ونصحت الأمة وكشف الله بك الغمة . .

وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين . .

الخطبة الثانية:

وهكذا توقف البث والإرسال من على جبل عرفات بعد أن ألقى النبي ﷺ بيانه إلى البشرية منذ أربعة عشر قرنًا . .

والآن أنتقل بحضراتكم إلى مكان آخر وإلى زمان آخر لنشاهد معًا ما آل إليه حال المسلمين.

الزمان: الجمعة الماضية، **والمكان:** ميدان التحرير، في قلب القاهرة.

يقف المسلمون وجها لوجه، يتناطحون ويتشاحنون ويتقاتلون، وتسيل الدماء على أرض الميدان من أجل التنافس على مناصب الدنيا وسلطة الحكم . .

- وهذا هو حال المسلمين اليوم فى العديد من بلاد الإسلام . .

نسى الجميع خطبة الوداع ووصايا النبي ﷺ:

«إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

نسى الجميع: **«لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».**

- قال لنا النبي ﷺ:

«أيها الناس . . اسمعوا منى، لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . . ».

فقلنا له بلسان الحال: سمعنا وعصينا.

قال لنا النبي ﷺ:

«إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . . . ».

فقلنا له بلسان الحال: سمعنا وعصينا .

قال لنا النبي ﷺ:

«لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

فقلنا له بلسان الحال: سمعنا وعصينا .

قال لنا النبي ﷺ:

«**لزوال الدنيا أهون على الله من سفك دم امرئ مسلم**».

فقلنا له بلسان الحال: سمعنا وعصينا .

- علينا أن نتذكر خطبة الوداع ووصايا الرسول ﷺ لنا، وألا نجعل مناصب الدنيا الزائلة هي أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، وتنسينا الآخرة . . لنأخذ العبرة ممن سبقونا . . أين أصحاب القصور والسلطة والمناصب الآن؟.

ضعف من بعد قوة . . وذُلٌّ من بعد عز . . وزنازين من بعد قصور.

فلماذا التشاحن؟ ولماذا التقاتل؟ ولماذا عصيان أوامر المولى عز وجل ووصايا النبي ﷺ؟.

- ننتهز فرصة هذه الأيام المباركة التي تتنزل فيها الرحمات لنتخلص من هذه الآفات الجاهلية . . ولنتذكر جميعًا حديث رسولنا ﷺ الجامع المانع الذى نختم به . .

يقول ﷺ:

«**دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد . . والبغضاء هي الحالقة، ليس حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**». سنن الترمذى وإسناده جيد.

فاللهم أنزل علينا السلام والأمن والأمان.